الجانب الإسلامي من القضية الفلسطينية

للأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني
رئيس قسم الدراسات الفلسطينية

كان المقدر أن يهتز العالم الإسلامي كله للكارثة التي حلت بفلسطين ، وأدت إلى زوال اسمها من خارطة العالم ، بعد أن ظل قائماً زهاء ثمانية عشر قرناً ، منذ محا الأمبراطور الروماني (اليوس هارد يانوس) Aelius Haderianus مملكة يهودا من الوجود ، وشتت شمل اليهود ، وأطلق على تلك الرقعة من الأرض اسم «فلسطين» ـ وهو الاسم الذي كان يطلق على الساحل الممتد بين يافا وغزة(١)ـ مباينة بطبيعة تربتها وجنس سكانها المنطقة الجبلية الداخلية التي تكونت فيها مملكة يهوداً . وزال بزوال اسم فلسطين أسماء مئات المدن والقرى العربية ، وعلى رأسها « بيت المقدس » الذي حل محله اسم « أورشليم » منبئاً عن زوال الصبغة الدينية لمدينةٍ تعد ثانية مدن العالم الإسلامي قداسة وخطورة .

وربما يرجع التراخي إلى أربعة أسباب :

أولها إنشغال المسلمين بمشكلاتهم المحلية ، ومعظمهم حديثوا عهد بالحكم الذاتي والتحرر من الاستعمار .

وثانيها نفوذ القوى التي انحازت إلى العدو وآزرته سياسياً وعلمياً وعسكرياً بالخفاء حيناً وبالعلن حيناً آخر . وقد حاولت هذه القوى الضغط على الحكومات كيلا تندفع وراء مشاعر الجماهير ، حتى تتراخى القضية ويأخذ الأمر الواقع الحكم الشرعي .

وثالثها الإفساد بين البلاد الإسلامية على نحو يجمع بين الخفاء والدهاء، بإثارة

---

(١) اسم فلسطين مشتق من اسم الشعب الفلستي الذي نزل الساحل الجنوبي المعروف فيما بعد باسم السهل الفلسطيني ؛ في القرن الثاني عشر ق.م. ومدنه الخمس الشهيرة هي غزة وعسقلان وأسدود وا كرون وجات وجبل الكرمل كوّن الحدود الشمالية لفلسطين . أنظر The Biblical world ميشجن سنة ١٩٦٦ .

النعرات والمطامع والخلافات حتى تضيع القضية وسط عواصف مفتعلة .

ورابعها عدم وضوح الرؤية البعيدة ، لبراعة العدو فى طمس الحقائق وإخفاء النوايا والتظاهر بالوداعة والمسكنة .

ولهذه الأسباب طمست معالم القضية ، وخفيت أخطار جليلة ، وحبست المشاعر فى النفوس انحباساً مؤقتاً ريثما يظهر القائد ويطلق المارد الحبيس .

والقصد من تقديم هذا البحث تهيئة الجو لوضوح الرؤية ، وجلاء الخطر الذى يحيق بالمسلمين ، وأود أن أقول وبالمسيحيين أيضاً إن جاز التحدث عنهم — لاسترداد الحق وإقامة العدل فى قضية هى بحق قضية القرن العشرين .

لا يعرف تاريخ البشرية الطويل ظلما كهذا الظلم : طائفة دينية تمردت على الله وعلى الأنبياء وعلى كل بلد حلّت فيه ، فجرّ ذلك عليها الإضطهاد وأورثها الحقد والأنانية والعقد النفسانية . وبدلا من أن تفيد من تجارب الزمن ومحنه ، فتندمج فى الأسرة الانسانية ، متخلية عن كبريائها وأوهامها وأساطيرها ، فإنها تغزو بلداً آمنا مأهولا ، وتقتلع سكانه من جذورهم ، متوسلة بخداع الرأى العام وبالأسلحة الفتاكة ، والقوانين العنصرية الجائرة ، لتعود بالبشرية القهقرى ألفى سنة إلى الوراء ، متمثلة بقول أرميا :

« ومد الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى : هاقد جعلت كلامى فى فمك . انظر . قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتُهلك وتنقض وتبنى وتغرس » ١/٩/١٠ .

ويقول زكريا :

« فى ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب ، وكشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار » ١٢/٦

والخطر من هذه المطامع والأوهام يحيق بالبشرية كلها . ولكن العالم الإسلامى — وفى مقدمته العرب — يواجه الضربة الأولى . وإذا استطاع العدو أن يفتح ثغرة فى هذا السور فسينفذ منه إلى البلاد المسيحية البعيدة — التى

اضطهدت هذه الطائفـــة وأذلتها — « ليقلع ويهدم ويهلك » ، منتقما منهـا شر انتقام .

وما موطن الخطر على العالم الإسلامى ؟

إن فلسطين تقع فى قلب العالم العربى والإسلامى ، وتصل بين شرقه وغربه ، شماله وجنوبه . وإذا تمكن العدو من ترسيخ أقدامه فيها ، فلن يقنع بهـا ، بل سيثب منها على ما حولها ، ليكوّن دولة كبيرة تمتد من النيل إلى الفرات، ويتسع سلطانها حتى يهدد مقدساتنا : الكعبة المشرفة ، والمسجد النبوى ، وقبر الرسول صلوات الله عليه .

ورب قائل هذا رجم بالغيب ، وتهويل داعية . إذن فليسمع . قال قاضى القضاة مجير الدين الحنبلى ، فى الأنس الجليل : « وفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة قصد الإفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لينبشوا قبره الشريف ، وينقلوا جسده الكريم إلى بلادهم ويدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجُعل ، فأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك ، سفناً حملها على البر إلى بحر القُلْزُم (الأحمر) وركب فيها الرجال ، وسارت الإفرنج ومضوا يريدون المدينة الشريفة. وكان السلطان صلاح الدين على حوران ، فلما بلغه ذلك بعث إلى سيف الدولة بن منقذ، نائبه بمصر ، يأمره بتجهيز الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب خلف العدو، فاستعد لذلك وسار فى طلبهم حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة الشريفة النبوية إلا مسافة يوم . وكانوا نيفاً وثلاثمائة ، وقد انضم إليهم عدد من العربان المرتدة . ففرت العربان ، والتجأ الإفرنج إلى رأس جبل صعب المرتقى ، فصعد إليهم فى نحو عشرة أنفس ، وضايقهم فيه . فخارت قواهم بعد ما كانوا معدودين من الشجعان وقبض عليهم ، وقيدهم وحملهم إلى القاهرة . وكان لدخولهم يوم مشهود . وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة .. » ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

ونقول تعقيباً على هذا النص : ما الذى يمنع الإسرائيليين من إعادة التجربة ،

والكر على بيت الله الحرام وقبر المصطفى عليه السلام ؟ ألم يعلنوا أن لهم حقوقاً تاريخية يجب أن يستردوها ؟ وأين ؟ فى يثرب مدينة الرسول حيث كانت لهم قلاع وحصون ، ألم يعلن قائدهم يوما على نيتهم فى مشاركة العرب فى النفط ، فى استخراجه وتصنيعه ؟

ثم إن فلسطين نفسها متحف دينى لا نظير له فى أية بقعة فى العالم . ومع أنها تحتوى على مقدسات اليهود والمسيحيين كل على انفراد ، فإنها فى نظر المسلمين مثلثة التقديس مقدسة لاحتوائها على آثار أنبياء الله ابتداءاً من أبيهم إبراهيم عليه السلام ، إلى آخر من بعث منهم إلى بنى إسرائيل . والمسلمون يقدسون هؤلاء الأنبياء أكثر مما يقدسهم الإسرائيليون أنفسهم ، فداود فى نظر اليهود ملك لا نبى . وكذلك ابنه سليمان ، ولكنهما عند المسلمين نبيان كريمان . ولهذا أحاط المسلمون مقامها بمثل ماأحاطوا مقدساتهم ، وظلا موضعين للعبادة والرعاية إلى آخر عهد المسلمين بها . وفلسطين مقدسة ثانية لاحتوائها على آثار السيد المسيح وأمه البتول وحواريه . ومقدسة ثالثة لاحتوائها على الآثار الإسلامية التى تراكمت وامتدت عبر العصور حتى شملت كل شبر فيها .

وأعلن على رؤوس الأشهاد حقيقة ظلت خافية وهى أن معظم الأراضى الفلسطينية موقوفة وقفاً إسلامياً صحيحاً . أذكر من أوقافها وقف ابراهيم الخليل ، ووقف النبى موسى ، ووقف النبى روبين ، ووقف النبى صالح ، ووقف سيدنا على (جد مجير الدين الحنبلى العليمى) ، ووقف سنان باشا . وهى من الاتساع بحيث تشمل معظم الديار الفلسطينية . وأعلن أن اليهود أقاموا على هذه الأوقاف الإسلامية مستعمرات اتسعت حتى أصبحت مدناً ، منها (عيون قارة) — المعروفة عندهم بريشون دى زيون — و (ملبس) المعروفة عندهم بتاح تكفا — ، ومنها صرفند وفجة وشعيرة الخ .. لقد طمست وقفية هذه الأراضى الشاسعة فى أثناء استغلال الرشوة والفساد فى أواخر الحكم العثمانى ، وزاد طمسها فى أثناء الحكم البريطانى الجائر ، الذى هدّد وبدّد ، وكمّ الأفواه ، وأذلّ أعناق الرجال .

لقد استولى الإسرائيليون قبل عدوان ١٩٦٧ على نحو ألف مسجد من بيوت

الله المنتشرة فى المدن والقرى ، وعلى نحو مليون دونم موقوفة ، وعلى مدارس أثرية[١] . واستولوا بعد سنة ١٩٦٧ على رقعة عربية مائة فى المائة ، جميع سكانها عرب ، وكثير من أراضيها موقوفة ، وهى وإن كانت أقل مساحة مما استولوا عليه سنة ١٩٤٨ ، على جانب كبير من الخصب والخطورة من النواحى الدينية والأثرية والاستراتيجية .

وقد أشار إلى مصادرة الوقف الإسلامى ونقل ملكيته إلى (القيّم على أملاك الغائبين) الإسرائيلى أحد شعراء الأرض المحتلة « راشد حسين » فى قصيدة تهكمية رائعة ، جاء فيها :

الله أصبح « غائباً » يا سيدى : صادر إذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة ، فهى من أملاكه وبع المؤذن فى المزاد الأسود
حتى يتامانا أبوهم « غائب » صادر يتامانا إذن يا سيدى
لا تعتذر من قال إنك ظالم لا تعتذر ! من قال إنك معتدى
حررت حتى السائمات غداة أن أعطيت « أبراهام » أرض « محمد »
أنا لو عصرت رغيف خبزك فى يدى لرأيت منه دمى يسيل على يدى[٢]

وبعد سنة ١٩٦٧ اغتصبوا سائر فلسطين ، وانتهكوا حرمة (بيت المقدس) التى شرفها الله ، وعظمها الخلفاء والعلماء ، ورصّعها أهلها بأنفس الآثار من مساجد ومعاهد وزوايا وتكايا ومقابر ، والتى أحرم منها المسلمون بالحج والعمرة منذ عهد عمر بن الخطاب إلى يوم الغدر الأكبر بالمدينة المقدسة .

وقد فصّلنا القول فى (بيت المقدس) فيما كتبناه عن عروبة هذه المدينة العالمية

---

(١) المقدسات الاسلامية فى فلسطين ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧

(٢) العرب فى اسرائيل لصبرى جريس ، بيروت ١٩٦٧ ج ١ ص ١٣٢ .

وفيما كتبه العالم الشيخ عبد الحميد السائح[١] . ولا يستطيع قلم أن يفى هذه المدينة حقها ويبين ما للمؤمنين من حقوق فيها ، أجل وأعظم من أن يُفَرِّط فيها . ونقول باختصار : إن ذهبت بيت المقدس من أيدينا أصبحت مكة والمدينة تحت رحمة العدو وإن لم يرتفع للأسود زئير وهدير فى هذه الطامَّة، وإن لم تهتز جنبات العالم الإسلامى ، شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً ، وإن لم يندفع المسلمون كالسيل نحو هذه المدينة ليطهروها، فقل على الإسلام العفاء . إن أهمية بيت المقدس مزدوجة لذاتها ومكانتها الدينية والتاريخية ، ولموقعها الاستراتيجى الذى يجعل المسيطر عليها مسيطراً على وادى الأردن وما وراءه .

ويحدثنا التاريخ أن بنى إسرائيل لم تتحد دويلتاهم — إسرائيل ويهوذا — ولم يتمكنوا من قهر الفلسطينيين النازلين على الساحل إلا بعد أن استولى داود على بيت المقدس . فقبل استيلائهم على هذه المدينة الحصينة بجبالها المرتفعة كانوا عاجزين عن توحيد الدويلتين والسيطرة على الطرق .

فالقدس الغربية — التى اغتصبها الإسرائيليون سنة ١٩٤٨ .. من أصحابها العرب ولم يقنعوا بها — هى مفتاح المنطقة الساحلية لمن استولى عليها استولى على الساحل الفلسطينى. والقدس الشرقية ، التى اغتصبها الإسرائيليون سنة ١٩٦٧ هى مفتاح وادى الأردن وما وراءه لمن تمكن منها تمكن من الوادى وسيطر عليه سيطرة تامة . ذلك أن المدينة تقع على هضاب عالية يبلغ ارتفاعها ٨٠٠ متراً عن سطح البحر ، وهذه الهضاب قلاع طبيعية يتعذر اختراقها ، والمدينة — فوق ذلك — هى الملتقى الطبيعى بين الشمال والجنوب — أى بين مدن الشمال ومن أكبرها نابلس، ومدن الجنوب ومن أكبرها الخليل — وبين الساحل ووادى الأردن . وهذا هو سر استماتة الإسرائيليين فى الاحتفاظ بالقسم الشرقى من المدينة ، ولا سرّ سواه . فبسيطرتهم على المدينة تصبح جميع البلاد الفلسطينية خاضعة لهم عسكرياً ، سواء أكانت تابعة لهم سياسياً أم غير تابعة .

---

(١) مكانة القدس فى الإسلام ، مجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٩ .

ونقول لإخواننا الذين لم يطلعوا على كتب العدوان الخطب جلل؛ فالخطة التى يبيتها العدو لفلسطين ، وتتكشف تدريجياً من كتبهم ، هى أن تصبح فلسطين نقطة ارتكاز لحركة صهيونية عالمية دينية وثقافية ، تنشأ فيها المعاهد ذات الصبغة العالمية لدراسة التوراة وبعث العبرية، وتقام فيها الكنائس الكبرى فى جميع المدن، وتبنى المدن والمستعمرات بأسماء دينية قديمة(١) . والقصد من هذه المشروعات التى كشفها الكاتب الصيونى نورمان بنتويتش الإمعان فى تهويد فلسطين وإزالة عروبتها ، إذ لا يتم ذلك إلا على حساب الكنائس المسيحية والمساجد الإسلامية ، والآثار والذكريات والحقوق التى أورثها الآباءُ الأبناء قروناً متواصلة .

إن كل إسرائيلى يدخل فلسطين يحل محل عربى فيها ، وكل ذراع من الأرض يستولى عليه الإسرائيليون هو حرمان العرب من رقعة من أرضهم من ناحية ، وحصن يصوب منه الموت والدمار لسائر البلاد العربية والإسلامية من ناحية أخرى . ويومذاك يصدق المثل : انج سعد فقد هلك سعيد .

أيها المسلمون: إنى لأسمع هاتفاً من بعيد يردد قول الشاعر فى يوم حالك شبيه بهذا اليوم .

على قبة المعرج والصخرة التى ... تفاخر ما فى الأرض من صخرات
مصاحف آيات خلت من تلاوة ... ونازل وحى مقفر العرصات

أسمع هذا الهاتف فترتاع النفس .

ثم يجيء صدى من بعيد يردد قول الآخر فى يوم أغر محجل :

المسجد الأقصى له عادةٌ ... سارت فصارت مثلا سائرا

---

(١) الفصل الأخير من كتاب The Jeuls in Our Time لنورمان بنتويتش لندن ١٩٦٠ ص ١٤٤ .

إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا
فنـــاصر أنقـــذه أولا وناصر أنقـــذه آخـرا

فتعود إلى النفس الطمأنينـة ويخفق الأمل .

فيا أيها المسلمون ! انقذوا ديارالمسلمينومقدساتكم ، ولا تغفلوا طرفة عين ، واذكروا قول الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهـده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » التوبة /١١١ .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
مصر اتحاد الجامعات العربية